(منزلة المحاسبة)

المحاسبة: هي قياس العبد ما يصدر منه من أقوال وأعمال ونوايا على أوامر الله ونواهيه، فإن وافقها حمد الله وإن خالفها عاد إليها، أو هي قياس العبد ماله وما عليه فيستصحب ما له ويؤدي ما عليه ويستدرك ما فاته؛ لأنه مسافر سفرَ من لا يعود.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: 18] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدّم لغد، وذلك يتضمن محاسبةَ نفسه، والنظرَ في موافقته الشرع أو مخالفته، وهل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟

ذكر أهل التربية الروحية أنواعاً لمحاسبة المرء نفسه:

– أحدها أن يقارن العبد بين ما يصدر منه من أقوال وأفعال ونوايا وبين وأوامر الله ونواهيه فإن وافقها حمد الله وإن خالفها صحح خطأه – كما سبق–.

– وثانيها أن يقارن العبد بين نعم الله عليه وجناياته بين يديه، فتتطامن بين يدي الله نفسُه ويرى تقصيرَه ويضاعف في الصالحات سيرَه.

نقلوا عن توبة بن الصمة وكان محاسباً لنفسه فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي قريب من اثنين وعشرين ألفَ يوم، فصرخ وقال يا ويلتي ألقى الملك باثنين وعشرين ألف ذنب، فكيف وفي كل يوم مئات الذنوب ثم خر مغشياً عليه.

وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد، ويتبين لك حقيقةُ النفس وصفاتُها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وأنت قبل هذه المحاسبة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبية فاطرها وخالقها.

– وثالث أنواع المحاسبة أن يقارن العبد بين حسناته وسيئاته، فيعلم بهذه المقايسة أيهما أكثر وأرجح قدرا وصفة.

ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: 6].

وقد كان بعض الصالحين إذا أصبح عليه الصباح حمل كيساً من الحصى فإن عمل خيراً وضع حصاة في جيبه الأيمن وإن فعل سوءاً وضع الحصاة في جيبه الأيسر فإذا أمسى المساء نفضهما وقايس بين الاثنين فإما أن يبيت شاكراً معترفاً لربه بفضله وإما أن يطوي مصلياً ذاكراً مستغفراً رجاء أن يغفر الله له تفريطه.

هذه هي منزلة محاسبة النفس، وهذه ثلاثة أنواع من المحاسبة أن تقايس ما يصدر منك من قول أو فعل أو نية مع أوامر الله ونواهيه، وأن تقايس بين نعم الله عليك وجناياتك بين يديه، وأن تقايس بين حسناتك وسيئاتك، والسعيد الموفق من حاسب نفسه بها جميعاً.

والحمد لله رب العالمين